Issue 6244-6245 Saturday-Sunday12-13/1/2019
الزمان – السنة الحادية والعشرون العدد 6244-6245 السبت–الاحد 6 من جمادى الاولى 1440 هـ 12–13 من كانون الثاني (يناير) 2019م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/21. UK

ساعة في أبعاد الزمن

عبدالرضا سلمان حساني
بغداد

الزمن هو عامل أساس في تشكيل معادلات ومَعْلَمات قوانين الحياة وحركة مكوّنات الكون وهو مقياس كلّ حدث في البدء والإنتهاء وما بينهما. والزمن هو مقادير الأعمار وهو بعد تركيبي في محاور الوصف المتكامل لمنظومات ديناميكيّة الأشياء في الطبيعة بإعتباره نبض التقاويم ومسارها الذي لايتوقّف.

لقد بدأ خط شروع الزمن منذ الثانية الأولى لنشوء الكون بموجب نظرية الإنفجار الكبير قبل 13,7 مليار سنة حيث أن الكون كان في حالة بلازما (غاز متأيّن بدرجة حرارة وصلت اليمائة مليون درجة) في أوّل مائة ثانية من نشوء الكون. ومنذ ذلك الحين بدأ تعريف الزمن وأصبح الفلاسفةينظرون اليه بأنّه طريقة الطبيعة للحفاظ على الأحداث وترتيبها بحيث لايحدث كل شيء حالاً!

قبل 2500 سنة، عرّف أرسطوطاليس الزمن بأنّه أكثر شيء مجهول من بين الأشياء. فإذا مرّ الوقت فلا يمكن تعويضه لأن زمن الماضي

قد مرّ ومضى ولن يعود أبداً. وعليه فالماضي هو زمن في الوراء و(الآن) هو الحاضر ولكلّ منّا له(الآن) الذي يخصّه في هذا الكون الفسيح أذا ما أدخلنا مفهوم الزمان والمكان(الزمكان) وأبعاده.

وهذا ماوضعه ألبرت آينشتاين في نظريتيه النسبيتين العامة والخاصة.

ضوء قادم

في مساء أحد أيام ربيع عام 1905 وفي مدينة بيرن السويسرية، ركب آينشتاين عربة قطار وأثناء الرحلة تأمّل في ضوء قادم من أحد الأبراج التي مرّ بها القطار وكانت هناك ساعة في اعلى البرج.

وكان مايشغل تفكير آينشتاين في تلك الفترة هو مايحدث في الكون ومن حوله من ظواهر.

وهنا قدحت في ذهنه فكرة فحواها(مالذي يحدث لو كانت عربة القطار تسير بسرعة الضوء؟) وكانت هذه بداية ثورة في مفاهيم الفيزياء وعلوم أخرى. لقد أدرك آينشتاين بأن ساعة يده في هذه السرعة سيتجمّد فيها الزمن، في حين أن ساعة البرج ستسير بنمط زمن إعتيادي (زمن يتجمّد في ساعة متحرّكة وآخر يسري بنمط طبيعي في ساعة برج ثابت). وهنا بدأت فكرة تباطؤ الزمن لديه وإستنتج بأنّه كلّما تحرّكنا سريعاً خلال الفضاء (المكان) ستتباطأ حركتنا خلال الزمن. لقد إعتمد آينشتاين في تحليلاته على قوانين نيوتن في الحركة وهي أن الحركة هي نسبية (حركة جسم نسبة الى جسم آخر). وإعتمد أيضاً على النظرية الكهرومغناطيسية التي وضعها جيمس كلارك ماكسويل في عام 1864وهي أن سرعة الموجة الكهرومغناطيسية أو الضوء ثابتة بقيمة ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية بغض النظر عن المشاهد أو الناظر. وهذا خلاف يظهر للوهلة الأولى بأن هناك سرعة نسبيّة وأخرى للضوء كونية ثابتة. في هذا الصراع بين المفهومين، إقترح آينشتاين فكرة توسّع الزمن في نظريته النسبية الخاصة. وهذا نمط تفصيلي في التفكير بساعة زمن ومعناها الكوني والعلمي بتصوّر العلماء الأوائل. وقد أعطيت بشيء من الإسهاب للأهميّة العلمية والتطبيقيّة.

خبر سعيد

وهناك مثال لساعة أخرى وهي ذات المحتوى المعنوي في العمل. ففي عام 1962 كتب الشاعر الغنائي المصري المبدع حسين السيد (1916–1983) أغنيربّنا هذا يوم جديد، فإجعله حاملاً للخير والخبر السعيد من كرمكَ ورحمتكَ ورزقكَ يا أحكم الحاكمين (دقّت ساعة العمل) ولحّنها وغنّاها الموسيقار محمد عبدالوهاب.

وبعد 56 عاماً لابدّ أن ننظر الى تلك الساعة العربية المعبّرة عن واقع عمل ديناميكي يعكس إيجابيّاته على المجتع بأجمعه. فمعذرة من روح الشاعر حسين السيد لإستبدال كلمة العمل في العنوان على أساس أنّ العمل ينبع من

غرسة أمل أو في جدلية لا غبار على صيرورتها. وفي الشعر وردت ساعة التأمّل والطاقات الموجبة ونورد هنا ساعة الصفر لدى نزار قبّاني كمثال مبسّط ليس إلاّ.

يقول نزار في قصيدته (ساعة الصفر):

إنّنا في ساعة الصفر فما تقترحين؟
أصبحت أعصابنا فحماً، فما
تقترحين علب التبغ رميناها
وأحرقنا السفين وقتلنا الحب في
اعماقنا وهو جنين في محتوى هذا المقال لانتحدّث عن ساعة زمن بدقائقها الستين أو عن ساعة آليّة وإنّما عن حركة عمل توافقية متشاكهة متناغمة مع بيئتها ومحيطها و متّصلة في جميع المكوّنات و العناصر الزمكانيّة والبشريّة في بيئة ومجتمع واحد متفاعل عبر الأبعاد الجغرافيّة المألوفة التي تحدد التموقع.

فماهي ساعة الأمل إذن؟ وماهي معاييرها في هذا الزمن الذي جاد الينا وعلينا بساعات تعمل بتقانات متعددة؟ ماهو منتج ساعة الأمل مثلما نرى منتج ساعة العمل؟

لابدّ أن نتّفق بأنّه يمكن تشبيه الزمن بطريق ذي إتجاه واحد والساعة هي إحدى مكوّناته. فساعة الأمس قد مرّت ويعيش كلّ منّا ساعة (الآن) بإنتظار الساعة القادمة. هذه السة للزمن مشابهة لمفهوم الإنتروپي في القانون الثاني للثرموداينمكس (الحرارة). فالإنتروپي هو عامل قياس اللانظام أو العشوائية في أي عملية مهما يكون جنسها مادام أنّ هناك طاقة ودرجة حرارة تتصرّفان بمرور الزمن الذي يسير والإنتروپي معه في تزايد. ولتوضيح معنى درجة اللانظام، نتصوّر أنّ هناك صندوق يحتوي على عدد من كرات المنضدة (الطاولة) بلو ونين مختلفين. فإذا وضعنا كل لون في جهة داخل الصندوق فهذه درجة ترتيب للنظام؟ أمّا صورة اللانظام فتتجسّد عند خلط الكرات في داخل الصندوق بشكل عشوائي. ولكنّ اللون لايكفي إذا كان الشخص الذي أمامه الصندوق أعمى، وعليه يجب إدخال عامل او عوامل اخرى كحجم الكرات أو كتلتها او وضع نقشة على بعضها أو غيرها. ولكي يكون عامل الإنتروپي أكثر دقّة، فقد طرحه العالم بولتزمان في معادلات يتم التعامل معه فيه إحصائيّاً.

وهنا نشير الى أنّ هذا العامل موجود في المنظومات العاملة وكذلك موجود في اجهزة الجسم البشري وسلوكه وتأثر وتأثير الأداء اليومي.

وضمن نفس السياق، أُعتُمد مقياس الإنتاجية والقدرة البشريّةفي العمل وهو (رجل–ساعة) والذي يظهر كعدد يحتاجه إنجاز كل مشروع أو عمل. وهنا تدخل المؤهّلات والمواصفات الحقيقية والإمكانيّات الفاعلة عمليّاً للعاملين حتى تكون الحسابات واقعيّة.

إذن الزمن في ساعة عمل بنّاء هو صورة مصغّرة لمجموع الأزمان وإنّ ساعة الأمل تبني أيضاً حتى للعاطل عن العمل. وهنا نقول باللهجة العاميّة بأن الزمن هو(ساعة تروح وساعة تجي) وهذه عبارة وردت على لسان الفنّان إسماعيل ياسين في أفلامه والتي تعلّمها من ممثّل إسمه (حسن أتلا) بخروج عن النص في تصوير أحد مشاهد فلم سينمائي قديم.

سطور الختام

وفي إطار الإنتروپي ودرجة اللانظام:

من الطبيعي أن تتبع الهزّات الأرضيّة هزّات إرتداديّة، وهذا ما يحدثُ تحت الأرض بين طبقاتها. فمتى تحدث فوق سطح بعض الأرض لإزاحة مفسدين ولتقويم أداء في بناء؟!

> الزمن في ساعة عمل بنّاء هو صورة مصغّرة لمجموع الأزمان وإنّ ساعة الأمل تبني أيضاً حتى للعاطل عن العمل. وهنا نقول باللهجة العاميّة بأن الزمن هو(ساعة تروح وساعة تجي) وهذه عبارة وردت على لسان الفنّان إسماعيل ياسين في أفلامه والتي تعلّمها من ممثّل إسمه (حسن أتلا) بخروج عن النص في تصوير أحد مشاهد فلم سينمائي قديم.

الإقتصاد العراقي وضياع وحدة القرار

حامد حمودي عباس
بغداد

من خلال المتابعة اليومية لمجمل تفاصيل الجدل السياسي بين اطراف عديدة ، استمرأت الظهور بصفة (محلل سياسي) عبر وسائل الاعلام ، المرئية منها على وجه التحديد ، فان اغلب أوجه ذلك الجدل لا يقترب من البؤر الحقيقية التي تتشكل منها أزمات الحياة المعيشية للمواطن ، بل يذهب في جله صوب محاولات يتيمة ، لتبرير ما اصاب العملية السياسية من صدوع ، هي في حقيقتها مخلوقة اصلا من عدم الانسجام والتجانس بين الاطراف الشريكة في ادارة البلاد منذ عام 2003 ولحد الان . في حين تفرز مؤشرات الواقع ، بأن البلاد تقف اليوم على حافة هاوية من الضياع ، سماتها هي عدم وضوح الرؤى الناضجة لحقيقة ان المستقبل الواضح امام الجميع ، هو الوقوع ضمن متاهات قد تكون كافية لتدمير البلاد والعباد ، سيما وان الارزاق الواردة لنا من النفط تهددها عوامل الاضطراب في موازين الاسعار وباتجاه الهبوط في غالب الاحيان .

ان ابرز الحلول المطروحة ، والاكثر تماسا مع متطلبات الواقع الحقيقي ، هي التحول من الاقتصاد وحيد الجانب الى الاكثر تنوعا من حيث الموارد ، وفي حالة العراق فان القطاع الزراعي هو البديل المتوقع والذي من شأنه ، لو تطورت عمليات استصلاح الاراضي واعادة الحياة لشبكات الري والبزل ، واستعادة العمل بقوانين الارواء المتطورة خارج مفاهيم السقي عن طريق القنوات المفتوحة (السيح) .. والتوجه الجاد ، والمرتكز على المفاهيم العلمية لاستغلال موارد المياه الجوفية ، باعتبارها رديفاً مهماً لمياه دجلة والفرات ، ومن ثم ايجاد الظروف الاجتماعية المشجعة لعودة الفلاحين ضمن هجرة معاكسة من المدينة الى الريف، تعتبر هذه مجتمعة من المحفزات الاساسية لخلق بدائل منطقية تكفي لولادة سند قوي يدفع بالاقتصاد في بلادنا نحو التطور الايجابي ، متمثلاً بالزراعة .

شائعة خبيثة

ومن المؤسف حقاً أن يصار ومنذ زمن ليس بالقصير ، الى اشاعة اليأس في نفوس العامة والخاصة ، ومصادر هذا الشعور الخطير ، هو الاقدام ، بنوايا قد تكون خبيثة ، على نشر المفاهيم التي من شأنها ان تجعل من اعادة الزراعة في العراق الى سابق عهدها ، أمر لا يمكن تحقيقه ، كونه يفتقر كليا الى بديهيات الشروع بالسعي لتنفيذ اصلاح زراعي واعد .. وفي مقدمة ما يضعه الساعون بهذا الاتجاه هو وضع عدم توفر التخصيصات المالية للتنفيذ ، كمعرقل رئيسي لا يمكن تجاوزه تحت خيمة العجز المالي المزمن في البلاد .. وبنفس قوة المحصلة يتحرك النظام الرسمي نحو ابعاد أي جهد حكومي لنصرة قضايا الفقراء من صغار الفلاحين ، ممن هجرتهم عوامل الخراب في اراضيهم ، وزحف معالم التصحر عليها وغياب البنى التحتية لبقائهم في ريفهم ، بدلا من التشرذم بين احياء (التجاوز) في المدن المفتقرة لأبسط معالم الحياة الآدمية.. كل ذلك يجري دون الالتفات الى استمرار عوامل الاضرار بالاقتصاد في البلاد ، بفعل تفشي الفساد ، وتآكل الاحتياطي النقدي وبشكل متصاعد في البنك المركزي العراقي ، وزيادة التضخم من جراء تعويم الدينار ، واغراق السوق المحلية بشتى انواع السلع المستوردة ، بحيث خرجت الامور عن السيطرة في الكثير من المواضع . لقد اصبح من الواضح اليوم ، عدم جدوى رهن الحياة المجتمعية المتردية للمواطن العراقي بالتقاطعات بين اطراف ما يسمى بالعملية السياسية ، ومحاولة الهاء عموم ابناء الشعب بمناكفات لا تمس صميم متطلبات معيشتهم اليومية الملحة .. كما بات من الضروري جدا ، الخروج من الازمات المفتعلة بين هذه الاطراف ، والسعي نحو تأليف لجان متخصصة وبشكل عاجل لدراسة واقع الحال الاقتصادي ، والعمل على توحيد آراء اساتذة الجامعات ، وحتى الاستعانة بالمراكز الاجنبية المعنية بوضع برامج حيوية لاقامة الخطط الرصينة باتجاه خلق التنمية الشاملة ، على ان تكون النواة الاساسية لهكذا نشاط ، هو ايجاد المخارج الحقيقية لتعافي جسد الاقتصاد الريعي المريض ، حين يصار الى ايجاد روافد جديدة تزيح عن جسده مظاهر العجز ، ويقيناً بان من اهم تلك الروافد ، هو القطاع الزراعي ، باعتباره المحرك الاكثر كفاءة لاعادة الحياة الى القطاع الصناعي لينهض من جديد .

رسالة إلى ولدي وحفيدي

عبد المحسن عباس الوائلي
بغداد

كتبت قبل هذا اكثر من مقال بخصوص الاولاد والاحفاد واعلم مسبقا ان هذا الجيل ويا اسفي الشديد قليل الالتزام قليل السمع قليل الطاعة متمردا على اعراف عديدة ويرجع سبب ذلك ان الذي يقرأ منهم يقرأ فقط واجباته المدرسية وليس في فكرة اي شيء غير انه ينجح بالدروس ويحصل على وظيفة هذه قمة طموحه وبعدها يلجئ للكماليات وينسى حتى ما قرأ من دروسه وكأنه حقق المستحيل فلم يكن بباله خدمة ابويه وجديه ان بقيا على قيد الحياة ليرد جزء من وفائهم ولا يهتم بشؤون وطنه وابناء وطنه ان لم اقل بالإنسانية ولدي وكل اولاد وطني هم أولادي وكل احفادهم هم احفادي وهذه مسؤولية الكلمة يجب ان اقولها عن نفسي ومثلي الكثيرون وكما قال احد الشعراء:

أحن اليكم حنين الصغار.. ومثلي كثيرون خلف الجدار.

لذا اقول مخاطبا ولدي وكل اولادي. يا بني اشد ما يؤسفني ما ارى في جيلكم من افراط في اللهو، كما كان يؤلمني ما كنت ارى في جيلنا من افراط في الجد، لقد عشت انا في جيل كان اكثر طلبته لايعرفون الا بيوتهم ودروسهم وكتبهم. فاذا اراد احدهم ان يلهو وطاوعته ماليته، ذهب لزيارة مراقد احد الائمة (عليهم السلام) أو زيارة رحمة قربة الى الله تعالى وشوقا اليهم. واذا قرأ مجلات او جرائد فمجلات جادة وجرائد وطنية، واذا عرف فتاة فقريبته تزور بيته مع امها، او يزور بيتها مع اهله، واذا اجتمع الطلبة وارادوا ان يتسلوا تنادروا على كتبهم ودروسهم، وقد يتنادرون—في ادب– على اساتذتهم. وعشت انت في جيل لايشبه الجيل القديم في شيء، عماده الحرية المطلقة وقلة الشعور بالمسؤولية، والنظر الى اللذائذ المادية على انها غاية الغايات، ينظرون الى الكتب والدرس والاساتذة على انها دواء مر يتعاطى للضرورة، والضرورة هي الشهادة فالوظيفة. ولاحساسكم بمرارتها ترحبون بكل ما يريحكم منها من اضراب واعتصام ومطالبة بطول اجازات ونحو ذلك. واذا قرأتم شيئا بجانب دروسكم قرأتم الكتب الرخيصة والمجلات الوضيعة التي تلهب الغرائز، وتقوى الشهوات، وتضعف الذكاء، وتبلد العقل، وفي كل يوم سينما أو تمثيل، وفي كل ساعة تليفون يرن لكم أو يرن منكم لمقابل لاهية او محادثة عابثة.

انقباض النفس

يا ولدي.. لقد غلونا في جدنا وغلوتم في هزلكم.. غلونا في جسدنا اكتأبت نفوسنا، وانقبضت صدورنا، ولم تتفتح للحياة كما يجب، ولم نبتهج لها كما ينبغي. وغلوتم في هزلكم حتى صرتم كالشيء التافه لاطعم له، وكالماء الفاتر لا ساخن ولا بارد.. وحتى صرتم شيئا رخوا ينكسر لادنى ملامسة او هشيما تذروه الرياح. ويوم يجد الجد وتظهر المصاعب فتتطلب حمل المسؤولية، نجد لكم ايديا مسترخية، وقلوبا متخاذلة، وارادات واهية، اضعفتها كثرة الطلب للذة، وقلة التعود لمواجهة المصاعب وحب الترف والنعيم.

من اجل هذا كثرت—مع الاسف– ضحاياكم، وعدت بالألوف صرعاكم. لا امل فيهم، ولا خير يرجى منهم، اصبحوا جثثا تتحرك كالأشباح، ومواد محطمة بل ارواح. اضاعوا صحتهم، واتلفوا مالهم، وخربوا نفوسهم، وجنوا على اسرتهم وامتهم. وهؤلاء صرعى الحب البائس أو الحب اليائس، او النزوة الوقتية من غير تقدير للمسؤولية.. الى غير ذلك من صرعى اللذات، وكلهم في الهم سواء. قد جرهم الى هذا الوبال ان رأوا بعض زملائهم ذوي المكانة—لسبب ما– قد استهتروا فقلدوهم، وتوالت على سمعهم ان الدنيا لذة فوجهوا اليها كل قوتهم. ورأى هؤلاء القادة انهم قد ضلوا، فأحبوا ان يشركوا معهم غيرهم فأضلوا.

ياقطعة كبدي.. لست اريدك ان تكون راهبا، فقد خلقت انسانا لا ملكا فلتكن انسان له ملذاته وشهواته في حدود عقله ومنفعة امته. والقرآن يقول "قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق"—اريدك ان تفهم معنى اللذة في حدودها الواسعة لا الضيقة.. ان للذة درجات كدرجات السلم اخذة في الصعود، فأسفل درجاتها لذة الاكل والشرب واللباس وما الى ذلك. ومن غريب امر هذه اللذة انها تفقد قيمتها بعد الاستمتاع بقليل منها، فلكل انسان طاقة من هذه اللذة يقف عندها، فاذا تعداها انقلبت الما. ثم هي ليست مرادفة للسعادة، فكثير ممن يأكلون الاكل الفاخر، ويلبسون اللباس الانيق، ويسكنون القصور الفخمة، هم مع ذلك اشقياء.. فسعادتهم انما هي في نظر غيرهم لا في نظر انفسهم، ولو كانت هذه اللذة هي السعادة لكان هؤلاء اسعد الناس دائما. ثم هذه اللذائذ قيمتها في الاعتدال فيها، وعدم التهافت على كسبها.

ان شئت فأحسب حساب من افرط فيها في فترة قصيرة من الزمن ثم فقد صحته، فلم يعد يستطيع ان يتابع لذته، وحساب من اعتدل فطال زمن لذته مضافا الى لذته من صحته. وارقى من هذه درجة لذة العلم والبحث والقراءة والدرس.. فهذه لذة العقل وتلك لذة الجسم، وهذه اطول زمنا واقل مؤنة وابعد عن المنافسة والمزاحمة والتقاتل والتكالب، وصاحبها اقل عرضة لتلف النفس وضياع الصحة. وان اردت الدليل على انها ارقى من اللذائذ، فأسال من جرب اللذتين، ومارس النوعين، تجد العالم الباحث والفنان الماهر والفيلسوف المتعمق لا يهمهم مأكلهم وملبسهم بقدر ما تهمهم لذتهم من بحثهم وفنهم وتفكيرهم.

وارقى من هذه وتلك لذة وهب نفسه لخدمة مبدأ يسعى لتحقيقه، او فكرة انسانية يجاهد في اعلانها واعتناقها، او اصلاح لداء اجتماعي يبذل جهده للقضاء عليه.. فهذه هي السعادة ولو مع الفقر، ولكن لا يصل الى هذه الدرجة من اللذة الا من رقى حسه وسمت نفسه.

يانور عيني.. انك خلقت انسانا ذا جسم وعقل وروح، وقد ربيت فنما جسمك وثقفت فنما عقلك، وارجوا ان يكون قد صادفك في بيئتك ما نما روحك. ولكل من هذه العناصر الثلاثة غذاؤه، ولكل لذته.. ولذة اللذائذ ان تستطيع ان تمد العناصر الثلاثة بغذائها ولذاتها من غير ان يطغى عنصر على غيره، فيختل التوازن، ويضيع التعادل.

يا حياتي.. طالما دعوت ربي جاهدا ان يجبنك الزلل، ويقيك شر اصدقاء السوء، ويمنحك من قوة الارادة ما تتقى به شر المغريات المغوايات، وان يهديك الصراط المستقيم.

وبعد هذا ياولدي اني اعرف جيدا كيف يكون تفكير الكثيرون.. ودعني اتحدث لك عن الوالدون والاولاد بكل صدق متمنيا ان يأخذ به بصورة جدية لأنه تجربة صادقة عشتها وبعدها اتحدث لك عن مراحل العمر كما يراها مفكرون كبار علمهم الله الشيء الكثير فأن الله ارسل كتبه ورسله وانبيائه لخدمة الانسانية واصلاحها فظهر فيها المتعلم والجاهل المتدين والمؤمن حقا والضال والعياذ بالله وان مراحل عمر الانسان تبدأ من الثالثة والعشرين سنة وما قبلها طفولة ودراسة لاتحسب وابدأ بالقول فأقول.

عائلة جديدة

اذا اشتغلنا بأمر البنين والبنات، اي بأمر العائلة الجديدة التي هي المؤلفة لامة المستقبل، وأكثرنا من البحث فيه، فما نحن بذلك مجاوزين حدود الضروريات. بل اذا لم تقصر عزائمنا على تأليف امة المستقبل تأليفا خاليا من عيوب الحاضر، فبماذا نشتغل اذن؟..

انها لاشك ان اصلاح العائلة هو اساس اصلاح النظم الاجتماعية.. وانه ليسرنا بنوع خاص ان نسمع عن ابنائنا وبناتنا انهم يشاركوننا في افكارنا الخاصة بهم، ويميلون كل الميل الى العمل لتحقيق الامال لتغيير نظام العائلة العراقية تبعا للرضي الحاضر. بين العائلة العراقية بالامس، وبينها اليوم شبه واحد هو ان كلتيهما تؤدي الينا النتيجة الاجتماعية من الزواج، وهي الاولاد، ولكنها من حيث سعادة الزوجية، وما يستتبع ذلك من المنافع الشخصية والعامة تقدمان بين ايدينا فروقا هي سبب القلق الذي نحن فيه ونعمل لتلافيه. كان في عائلة الامس بين الرجل والمرأة شبه تام في الجهل، شبه تام في النظر الى الحوادث وتقديرها، شبه في فهم السعادة الزوجية. كان الرجل يجمع في البيت الواحد زوجتين او ثلاثا او اربعا. وقد يضيف الى عددهن ممن كانوا يسمونهن خطأ ملك اليمين من الشابات الرقيقات بيضا وسودا. ومع ذلك كانت الزوجة الاولى راضية بالمعيشة، وكانت تعتبر غيرة قلبها عليه من الزوجات الاخريات أو الجوار احساسا يجب ان تخفيه بقدر ما تستطيع. كان يمنعها الوقار غالبا من ان تفتح قلبها بالشكوى اليه أو الى ذي قرابة منها بما تجده من الالم، كان يرضيها من زوجها ان يعدل بينها وبين غيرها في المعاملة. كان يرضيها منه احترامه لها وعطفه عليها وعلى اولادها. وكانت مع هذا تحبه وتحفظ شرفه.

لا ادري هل كانت الزوجة بهذه الحال سعيدة، وهل كان الزوج على حال تلك الضرائر سعيدا ايضا؟ لكني اقول ان روايات الوفاق بين الزوج وزوجته واولاده كانت مستفيضة في جيلنا، وان حوادث الخلاف كانت اقل مما يسمع الان مع قلة الجمع بين زوجتين في هذا الجيل. ولا افهم سببا لكثرة الوفاق في عائلة الامس، وقلته في عائلة اليوم الا انه كان هناك شبه بين الزوجين في الطبقة الوسطى والعليا تقريبا، وان الزوجين كانا متفقين في فهم السعادة العائلية.

اما الان فأن الشاب الذي اتم دراسته يتطلع الى معاشرة زوجة تفهمه ويفهمها، ولكنه لايتزوج غالبا الا بأبنة جاهلة او قريبة منها، انه يفهم السعادة الزوجية على اخر نمط قال به الحكماء العصريون، وقرره مشاهير القصصيين. وهي لاتفهم تلك السعادة الا بمجموع ما يحصله خيالها من الروايات والحكاميات.. انه يرى الجمال في رشاقة القوام، وتناسب الاعضاء، وخفة الحركة، وطراوة الصوت، وبريق العينين، وجاذبية الحديث. وتفهم هي الجمال في السمن والبياض.. انه يرى الزينة في الحال الطبيعية او القليل المألوف من التجميل، وترى هي الزينة في الكحل وتزجيج الحواجب والصبغ بالالوان.. انه يرى دلائل المحبة في تبادل الحديث على صفاء وحسن رعاية في المعاملة والمجاملة، ولاتفهم دلائل المحبة الا بكثرة الهدايا.

ذلك قليل من الفروق الكثيرة بين اخلاق طرفي العائلة الحديثة في العراق.. اذا قدر على الشاب المتعلم ان يتزوج بغير المتعلمة.. فاذا ابتليت الفتاة المتعلمة بالزواج من غير المتعلم كانت تلك الفروق اظهر اثار في تنكيد العيش العائلي الى ما يشاء الله، لان التعليم يوجد بين المتعلمين شبها عظيما، خصوصا اذا كانت طريقة التعليم واحدة، فتعالوا بنا الى المدارس لانجد فيها البنات على نسبة البنين. ويكون من الطبيعي الى كل متعلم لايستطيع اذا كبر ان يتزوج بمتعلمة. وعلى ذلك لايمكننا ان نحصل على السعادة العائلية التي هي قاعدة جميع السعادات الاخرى.

انه لاسبيل لملاقاة ذلك الا باكثار عدد المتعلمات من البنات وتقريب معلوماتهن العامة من معلومات البنين بقدر المستطاع، فأن التي لاتعرف الا القراءة والكتابة لاتعلم شيئا، بل لابد لتكوين ملكة الفهم وانمائها وتقوية الاستعداد للحياة الراقية من الاخذ بقسط من العلوم والفنون والاداب.

وخير للفتيات العراقيات ان يتعلمن وان يتممن تعليمهن اذا استطعن لتتربى عقولهن تربية تضمن لهن ارضاء مطامع ازواجهن، فأن التعليم الابتدائي ليس له في ملكات الفتاة الا اثر محدود اذا نفعها اليوم في ان تتزوج من شاب مهذب، فلن ينفعها غدا حين يوجد لها مثيلات تعلمن تعليما ارقى، فصرن احق منها بسعادة العشرة مع رجل كفء ذي عقل كبير ومركز سام بين الناس. وهكذا تدور الايام بالإنسان فيرى الخير والشر في هذه الحياة طيلة مراحل عمره وتفكيره. فأن بلغ المرء الحادية والعشرين من العمر، يتمنى لو كان متقدما في السن. ففي الخامسة او السادسة عندما يكون تلميذا بالروضة يتمنى ان يكون في سن ابيه حتى يحصل على امتيازاته، أو في السن التي تؤهله للزواج من مدرسته. وفي الحادية عشرة، يتمنى ان يكون في السن التي يسمح له فيها باستعمال الدراجة. وفي السابعة عشرة يتمنى لو كان في الخامسة والعشرين حتى يسمح له بالزواج من "بنت الجيران" التي ملك حبها كل تفكيره. وعند العشرين يتعجل الوقت ويتمنى لو بلغ السن التي يتحرر فيها من رقابة والديه فيصبح حرا يفعل ما يريد ويتفق كما يشاء من كسبه الخاص.

ولكن عندما يبلغ المرء الثالثة والعشرين– ويكون في الغالب قد ظفر بالدراجة وادرك غباءه للتفكير في الزواج من معلمة المدرسة أو بنت الجيران، ويكون قد فقد نصف ايمانه بالنساء.. عندئذ يرى ان بقاءه على قيد الحياة—دون ان يتقدم الى الشيخوخة– هو خير ما يتمناه.

وفي نظري انني مازلت الشاب ابن الثامنة عشر الملء بالحماسة والحيوية والامل والرجاء رغم هذا ان زياراتي للحلاق. فالحلاق يحرص على تخبئه الاماكن التي خف فيها الشعر. واذا جلست بين جمع من الناس ضمنى الشيوخ في دائرتهم. ومع انني بلغت هذه السن، لازلت اخذ حمامات كل صباح حتى في ايام الشتاء. وعندي الان مال اكثر مما مضى لي اصدقاء احكم واذكى وعندي الان افكار ومشاريع لكتب وروايات وقصص من الكثرة بحيث لو عشت مائة سنة اخرى ما استطعت ان اكتبها.

مواجهة مصاعب

وقد اصبحت اكثر شجاعة وقدرة على مواجهة المصائب والنكبات.. خبرت خسة البشر—وانا منهم– وحتى الالم، اصبحت اكثر مقاومة له واقل احساسا به. وفي التاسعة والاربعين يزايل المرء الغرور، ويرى سعادته في ان يكون على وفاق مع الناس ومع خالقه.

ولكن هل انا حزين لأنني بلغت هذه السن، ونادم على ايام الشباب التي ولت؟.. لا... ان هناك خيرا كثيرا نجنيه من التقدم في العمر. ان العقل يذكو ويرجع كلما مضيت السنون وعرك المرء الحياة. انني لست كالذين في اواسط العمر– اهتم بالصلع وابيضاض الشعر واجزع من النظر الى التجاعيد وعلامات الكبر والشيخوخة. فالحياة اذا عرف المسن كيف يستمتع بها غدت بالصلع والتجاعيد وانحناء الظهر وضعف النظر حياة طبية ممتعة. واذا كانت بعض الملكات والرغبات والحواس تضعف، فأن غيرها تشحذ وتهذب وتقوى. لقد غدوت الان اكثر غراما بالحديث الطيب الحلو، وبقراءة الروايات الجيدة والكتب القيمة. والدعاء الى الله مخلصا بحسن العاقبة وعدم الاحتياج لاحد لان هنالك قولا للامام علي (ع) يقول فيه "ذقت المرارة كلها فلم اجد امر من الحاجة الى الناس".